

الوجدانية في النثر الجزائري الحديث

الدكتور: محمد زغينة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة باتنة

1 - تمهيد: المفهوم والمصطلح

الوجدانية Affectivité، حالات نفسية من حيث تأثرها باللذة والألم، غير مؤدية إلى المعرفة، في مقابل عمليات التصور والتفكير؛ لأن الوجدان البشري لا يدرك نواقص الحياة، وحتى معاني الحياة إلا من الصدام المؤلم.¹

ولعل أهم تعريف للوجدانية فنياً: ((صفة ما هو متعلق بالوجدان في معناه الأول؛... التأثيرية والانفعالية الشديدة الحساسية بالألم واللذة)).²

فهي لون من الأدب الذاتي الغنائي، الفردي الذي يبتعد عن النظرة الغيرية والموضوعية للأشياء، فهي التصوير التأثري الانفعالي لحالات الذات والنفس المتلذذة في غياهب الظروف المختلفة شاكية طوراً مفرحة أخرى؛ إنه الأدب الذي يكون صدى وفيضاً لأحاسيس الأديب العفوية، وترجمانا لقلقه واستقراره.

وقد استخدم هذا المصطلح كثير من أدبائنا ونقادنا ومنهم محمد مندور، عبد القادر القط، محمد ناصر، وغيرهم تحفظاً على تسمية هذا الأدب الوجداني بالأدب الرومانسي.³

فالوجدانية أشمل منه وأعم لأن الرومانسية عبارة عن مدرسة لها قوانينها، وهمومها، واتجاهاتها حسب البلدان الأوروبية، ووفق محيطها العام والخاص، ولكنها

¹ - انظر: جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين ط2 1984 ص289

² - المرجع السابق نفسه ص289

³ - انظر: د/محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، ط1 1984 ص86 وما بعدها.
وانظر: د/عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية بيروت 1978... إلخ

في الأدب العربي الجزائري بخاصة كانت ظاهرة إنسانية تحريرية قبل أن تكون ظاهرة مدرسية إذ يمكن أن تكون الرومانسية عاملاً من عواملها، ولكن الهم الأكبر كان الهم التحرري المعتمد على المبادئ الإسلامية؛ ولذا كانت سرحات في السيرة النبوية، واشراقات في الوطنية، وتأملات ذاتية مفرحة تارة، متشائمة طورا، مما وسمها بالشكوى والحنين والشوق إلى المثل العليا، ومناجاة للأمل المنتظر، ولل فجر الآتي وبخاصة عند الإبراهيمي وابن باديس، وأبي اليقظان، وعلي بن حالة. أما عند رمضان حمود، ومبارك جلواح، وبلقاسم بن أرواق فقد كانت الروح الرومانسية بادية في نثرهم بسبب إيمان هؤلاء بالتجديد وتأثرهم القوي بحركة النقد في المشرق العربي؛ هذه الحركة المشرقية التي وصلت أرواها إلى الجزائر عن طريق دخول بعض المجالات والجرائد بطريقة أو بأخرى، وبسبب قراءات بعضهم باللغة الفرنسية وبخاصة رمضان حمود، ومبارك جلواح، إذ إن هذا الأخير اختير لتمثيل جمعية العلماء المسلمين في فرنسا نظرا لإتقانه للغة الفرنسية وإطلاعه على أعمال عمالقة الرومانسيين الفرنسيين بخاصة.¹

وعلى العموم فإن عدم وضوح مصطلح الرومانسية في النثر الجزائري وضوحا كاملا عند أعلام النثر الجزائري تطلب مني أن أعمم مصطلح الوجدانية عوض مصطلح الرومانسية، لأن هؤلاء الكتاب لا يمتنعون بدرجة مقاربة على الأقل من حيث التصور الرومانسي للمقال؛ إذ نجد فيهم الكلاسيكي المحافظ الوجداني، ونجد الوجداني البحث، والرومانسي بكل مقومات الرومانسية، ونظرا لهذا ارتأيت أن يحمل هذا البحث مصطلح "الوجدانية" ليدل على كل ما هو ذاتي، انطباعي، إنشائي رومانسي، وليكون استمرارا لكل ما هو غنائي عربي دون التعلق بتلابيب نظريات الغرب، والجري وراء إثبات تأثر أدبائنا بهم، لأن الوجدانية خاصية إنسانية موعلة بغنائيتها في التاريخ البشري بل هي ضرب من ضروب روحانية الإنسان.

ولعل هذا المفهوم يؤكد أيضا تمسك الكاتب الجزائري — عموما — بالمحافظة الإيقاعية للجملة النثرية ذات الصبغة الوجدانية حتى في شعريتها نظرا لضخامة الموروث النثري العربي، وقوة الغنائية المتمكنة منه؛ وتكون القواعد

¹ - انظر: عبد الله الركبي، مبارك جلواح من التمرد إلى الانتحار، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1 1986 - الجزائر.

النثرية التي أضحت جزءا من ماضي الإبداع العربي الملتزم عموما بل أصبحت الكتابة ضربا من النضال والجهادية لدى الكتاب الجزائريين نظرا لوضعهم السياسي بخاصة، وهذا لم يسمح لهم بالخروج عن كثير من بروتوكولات التوسل العربي وقوانينه، ولذلك ظل هذا النثر - رغم اقترابه من الرومانسية - يرفض بشدة كل ما هو غربي ولو كان فنا وجمالا؛ لأن الصراع الإيديولوجي الحضاري فرض نفسه على الساحة الأدبية، ومن جهة أخرى فإن الكاتب الجزائري كان صاحب رسالة تحررية قبل أن يكون فنانا مما جعله يأخذ في الحسبان القارئ بكل فعاليته، بل إن الجرائد التي كانت تنشر هذه المقالات كانت تشترط نهجا معينا، وخطا وطنيا لا يمكن لصاحب المقال أن يحيد عنه، فمبارك جلواح مثلا كان بينه وبين أبي اليقظان شبه تعاقدا¹ على الكتابة شعرا كل أسبوع، وإذا كتب مبارك جلواح نثرا كانت التعليقات حول مقاله، بل توضع لها عدة علامات استفهام لأن المفهوم الكلاسيكي عند أصحاب الجرائد لا يجيز الوجدانية والغنائية إلا في الشعر الموزون المقفى ذي القصيدة². ولذلك جاءت هذه المقالات الوجدانية عبارة عن فلتات، وتدايعات، ومناجيات بلغة خيالية مجنحة متميزة بسيل من العواطف الهياجة، والسرقات الضبابية الحزينة؛ فيها كثير من التوهج الذاتي، والكثافة الشعرية مخترنة دلالاتها في أرومتها الوجدانية وبلاغة الصياغة، وتوتر إيقاعها، وتداخلها بين الكلاسيكية المحافظة، والرومانسية الحالمة، مما حدا بي إلى استحباب مفهوم الوجدانية وإثباته كعنوان مشترك لهذا اللون من المقال ونظرا لهذا استلزم مني أن أقف وقفة متأنية إزاء بعض ملامح هذا اللون من المقال.

2 - ملامح المقال الوجداني:

إن المتصفح للأدب الجزائري المنشور في الجرائد الجزائرية أثناء فترة الاستعمار الفرنسي، وبخاصة من سنة 1926 إلى 1954 يحس بمدى إيمان الكاتب الجزائري بالحرف العربي، والتصور الإسلامي وبدقة إحساسه ورهافة تصوره، لأن هذه المقالات كانت تقوم على الانفعال الوجداني بالتجربة، والتعبير عن تجارب خاصة ينساب فيها الكاتب مع أحاسيسه، وتقوده انفعالاته متخيرا التعبير والصورة

¹ - انظر: أبا اليقظان: الأمة، ع 112/03/09/1937، ص2

² - انظر مسألة الشعر العربي والقصيدة: حاتم الصكر، قصيدة النثر والشعرية العربية الجديدة من اشتراطات القصد إلى قراءة الأثر، مجلة فصول المجلد 15 العدد 2 صيف 1996 ص74 وما بعدها.

بظلالها وأبعادها البلاغية حسب الجو الشعوري، ووفق الحالة النفسية التي خالجتها عند الانفعال، فتختلط فيها اللحظات الإشرافية الراهنة؛ والحالات العامة السابقة؛ كل ذلك برؤى حاملة، وسرحات خيالية في عالم الكون والحياة، والسفر في مسامات التاريخ، كاشفة روح كاتبها المرححة حيناً، والحزينة أحياناً؛ هذه الروح العاشقة للجمال الباحثة عن الراحة الأبدية، الولهانة إلى الحرية، المنطلقة في الطبيعة وبخاصة حين تتحرر اللفظة من إسار "الكلاسيكية" فتفاجئك وتدهشك فتحس إزاءها بالانفعال العاطفي المتأجج، والفيوضات المتوهجة المتألفة الرؤى، المتوالدة المعاني، الممتدة الظلال، الحية الحركة، النابضة بالألم، الموشحة بالحزن، وبخاصة عند رمضان حمود، ومبارك جلواح، وعلي بن حالة.

وتمتاز هذه المقالات من حيث البناء — عموماً — بأنها منسقة، ومرتبطة بناء على منطق محكم، وتتضمن خبرة الكاتب، كما تتضمن المعلومات المفيدة وتكشف عن ذوق الكاتب، وأصالة تفكيرهم، إذ تكون الفكرة النواة التي يقيم الكاتب موضوعه عليها "انفعالياً" مع حسن العرض وسلامة التركيب، وإيحاء اللغة، وجلال التعبير، لأن المقال الوجداني نابع من العمق الشعري، ولذلك تتراحم فيه الصور في طرافة وسيولة دافئة، وروح مرهفة، وخيال مجنح وحياة متحركة الرؤى، بسحر التحليق في الأجواء العليا، والنفسية، الغامضة، بمشاعر إنسانية سامية، تحمل كثيراً من جمالية النفس وما تصبو إليه من جمال يثير الهواجس تجاه موقف ما أو حدث، فيكون بذلك المقال الوجداني، مقالاً انطباعياً وحصيلته التأمل، وحصاد الواقع، فيرسله الكاتب على سجيته، فيجري عذبا مسترسلاً على أوراقه؛ توجيهها، وتعبيرها وتنقيتها، ولذلك يحمل كثيراً من ذوقه الفني، ويكشف معاناته في محاولاته لإمسك اللحظات الهاربة الغاربة من حياته، وحياة الناس، والكون والحياة في لحظة التوتر، والاحتراق، وجذوة الارتقاء إلى الكمال الإنساني في فيافي هذا الفناء، فتتراءى التجربة الإبداعية في إشراق الرؤى، وفي سرحات الخيال المجنح، وأمواج النفس العاتية التي تصارع ليل الاستعمار، والغربة بأنواعها، فإذا المقال الوجداني أقرب ما يكون شعراً في انسيابه، وتدايعاته، وشعريته، وبخاصة حين يعيش الأديب أجواء ضبابية — كما في الوضع الجزائري آنذاك — تمتد من الذات إلى الفضاءات البعيدة، مرتقية إلى المستوى الإنساني الذي يلامس أرواحنا، ويحرك عواطفنا، لأن الوجداني صاحب انفعالات روحية ملتزمة — وبخاصة المؤمن

المتدين - وتصورات قلقة لأنها تخاطب العاطفة، وتتاجي الوجدان، بانفعال شاعري، ذاتي موغل في "الأنا" وبخاصة حين تطغى على الكاتب موجات الألم، وتغمره صور الحياة الكئيبة في لحظات التوق إلى الأجل والأكمل، وهذا ما جعل للأدباء ((دور الرواد في مجتمعاتهم يأمنونها إلى كعبة الحق وينصبون لها صوى ومنارات تعشو إليها عيونهم كلما احتلكت دياجير العماية، ويغنون لها مثلها العليا في الحرية والكرامة والبطولة والعطاء)).¹

فهذه المقالات - كما سنرى - تتدفق بانفعالية وفق الموجات الشعورية وتسير في خط متناقص إلى أن تبلغ غايتها، ولذلك تكون المقالة الوجدانية شحنات قوية في البدء، ثم تتناقص شيئا فشيئا، وعادة ما تكون متوترة لأن الكاتب تصطدم أحلامه بالواقع فلا يستطيع التكيف معه فيخلق في عوالم ذاتية أو وهمية، أو مثالية ليطمئن نفسه القلقة الحائرة، فتكون المقالة صدى لهذه الانفعالات، ومرآة تعكس هواجسه، ورؤيته للكون والحياة؛ فإذا المقالة الوجدانية: تجربة حية غير مذعنة للتقريرية والتفسيرية، لأنها تستمد روحها من ذاتها لا من الحجج والبراهين لأنها أقرب ما تكون من تهويمات الصوفية ولذلك تحمل كثيرا من الأحاسيس المرفهة؛ بإيحاءات تقبع وراءها ظلال وأطياف، وتترأى خلفها معان تتعاق وتداخل، وتتمازج لتكون الكلمة المعبرة، والصورة المركبة التي تتسجم مع ما يتفجر في النفس وما تعج به الحياة في حالة سكونها وهدرها فتكون المقالة الوجدانية مشعة الألفاظ، مرسلة لأنوارها في كل اتجاه لتتير السبيل أمام مدلجي الحياة، مما يجعلها تمتلك مشاعرنا، وتستولي على وجداننا، فنفاعل معها روحيا أكثر من تفاعلنا معها لغويا، لأن المقالة الوجدانية ذات لغة حية موحية، لا ذات لغة السقوط الذهني على الأشياء، لأنها تفيض من عمق المبدع وليست صناعة لفظية أو أفكارا منطقية، ولذلك تمتاز بدقة التصوير، وترخر بالأحلام، وتتلون بالعواطف، وتنتسرب بالرؤى، وتلتحف بالخيال مما يجعل الغموض يسودها في كثير من الأحيان، وبخاصة حين تمتد الصور في الزمان والمكان، وتتشخص في المكان لأن الصورة أقدر على نقل المشاعر، ورسم ذبذبات الروح، والإيحاء بتوتر النفس، وتصوير الحركة النفسية بأشكالها وألوانها، ولذلك تكون المقالة الوجدانية عبارة عن لوحات فنية نفاذة إلى صميم الأشياء، أو صورا متيقظة وجدانيا، ونفحات في صور؛ لأنها

¹ - علي أبو ملحم، في الأدب وفنونه، المطبعة العصرية للطباعة والنشر - لبنان 1970 ص 08

حالات وجدانية وليست حالات فكرية فقط، لأن نجاح المبدع ((يتوقف على مهارته في إثارة روابط في أذهان الآخرين، وفي تنبيه أداء وصور ومشاعر تتفق وصوره ومشاعره إلى حد ما)).¹

فالوجدانية في النثر هي الذاتية الشديدة الصلة بالألم والحنين والشوق، وفيض القلب، وكل ما يصور أو يعبر عن الصور الذاتية بالقلق، واضطراب الضمير، وتلمس طريق الخلاص من الواقع اللامتوازن، بحثاً عن المثال الذي افتقده منذ غرب آدم عن المعية الإلهية، ولذلك نرى المقالة الوجدانية تتطلع إلى معالم بعيدة الأفق بروح ثاقب، وحس مرهف، وفكر رقيق، وقيم مثالية، وبخاصة حين يسرح الكاتب المبدع في الطبيعة والحياة، ويسبح في الفضاءات الإنسانية وفي غيبيات روحية، إذ تفيض أشواقه، فتتلاحق صور المنصهرة بأتون الحياة، فإذا كل شيء صور ومشاعر وكائنات حية مما يبعث على النجوى والتوحد بها، فإذا الحقيقة ماثلة في مظاهر الكون بكل شموليتها وعدلها، وإذا التناسق في جزئيات هذا الوجود؛ لا خوف ولا هلع، وإنما أمن وسلام، وتفاؤل، حينئذ تطفئ موجات السمو إلى حقيقة الحقائق؛ إلى النور الأزلي والحق السرمدى، وبذلك تكتسب المقالة الوجدانية قيمتها الفنية من خلال قدرة النص على الإيحاء، فتصبح بذلك المقالة الوجدانية هي كل نثر نشر في المجلات، وعبر عن مشاعر كاتبه وأحاسيسه تجاه مشهد من المشاهد، أو حدث من الأحداث، أو قضية من القضايا، وعكست وضوح الرؤية، وصراحة الانتماء الذاتي الخاصة بالموضوع الذي تناوله؛ بروح "وجدانية"، فإذا هي تحمل طابع روحه؛ ومعالم نفسه، وطاقتها الوجدانية أو بالأحرى فلا يرى فيها المتلقي إلا أنها تجربة ذاتية، وجدانية مر بها الكاتب، وتمثل خطوطها، وعبر عنها بأسلوبه الخاص.

3 _ أهم أعلام المقال الوجداني:

أولاً: مبارك جلواح فقد كان شاعراً رومانسياً سوداوياً في معظم خواطره، إذ تراه يهول الأشياء، فتبدو الآلام في صور مرعبة، مخيفة وإذا به أشلاء ممزقة، مبعثرة،

¹ - د/ حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف مصر 1981 ص 51.

* - من مواليد قلعة بني عباس ولاية سطيف بالجزائر 1908 أو 1910، قرأ القرآن على يد والده، وبعض علماء عصره، انضم إلى جمعية العلماء، وكان عضواً فعالاً في باريس جمعية الفوضيل الورتلاني،

فلا تحس إلا بأنيته، وعذابه وصور الحوادث السوداء وهي تتنابه، والأهواء في أعماقه متصارعة، مفزعة، مرعبة، لأن الكاتب الوجداني تتراحم الأطياف عليه كما تتوالى الآلام مما يؤدي به إلى الانكسار النفسي، فتتفاعل عناصر الطبيعة مع نفسه، وتتدافع القيم على روحه، فيرسم لنا لوحات خاطرية جميلة، وبخاصة في لحظات الأطياف، يقول في خاطرته: البلبل المقفوص¹ ((أهلا وسهلا بمقدمك الميمون يا مهدئة الخواطر، ومبردة العيون، ومرحبا بك يا غرة هذا السحر الأبلج النضير؛ من خير سامرة حفت بالطف سمير؛ إيه يا نجية الصبا، ورسول عرائس الروض والربى؛ كأنك على علم مما أقلق مضجعي، وأحرق أضلعي؛ تحت جناح هذا الدامس الأسفع، وفوق سفح هذا الدارس البلقع؛ كأنك مخبرة بحال وطني المحتل، ورجائي المضمحل، فأقبلت في طلعتك الحلوة السافرة؛ طي غلاتك العلوية الزاهرة؛ تملئين الفضاء عطرا، وتفعمين النفوس بشرى؛ حتى انتهيت إلى انتهاء الأم الرؤوم إلى مخدع عزيزها المكلوم.))²

هكذا يستقبل مبارك جلواح نسمة من نسمات الحياة ليبوح لها بأسرار نفسه، ومخاوفها في هذه الحياة، التي انعدمت فيها القيم، واستعلى الإنسان فيها متجبرا، متسلطا؛ ليمحق أخاه الإنسان، ويستذله، ويغتصب كل ما يملك؛ مما حول الشعب الجزائري المسلم إلى قطيع من البؤساء، والفقراء، بل تحول كل شيء في أرض الجزائر، إلى سجين وراء القضبان، حتى الطيور التي كانت مرحلة فرحة، مسعدة، فإذا ألحائها لا توحى إلا بالحزن، والألم وهذا ما يرسمه الكاتب، حين يتنسم تلك النسمات التي تحمل إليه صوت عصفور يغرد بصوت حزين، يقول مبارك جلواح: ((ما أرحم وأشجى هذه النغمات الربابية البلبلية، نعم نغمات بلبلية جاعني بها حفيفك المؤنس من عبير وادي الحمى؛ ليسلي قلبي ويواسيه من بعض ما يجد غير أنها أنغام محزنة مؤلمة، أنغام المقيد المسجون لا صداح فوق متون الغصون.))³

فكل شيء عند مبارك جلواح لا يوحى إلا بالألم، والحزن، مما يجعل الكاتب يلامس بهذه الهواجس الواقع الجزائري المر، ويرتقي من فيافي النفس إلى أفياء

وكان من أهم المعجبين بهتلر مما أدى بالسلطات الفرنسية إلى قتله سنة 1943، وأعلن أنه انتحر، له ديوان شعر مخطوط، ومقالات، وخواطر في جرائد أبي اليقظان وجمعية العلماء المسلمين.

1- أنظر: مبارك جلواح البلبل المقفوص في أبي اليقظان، الأمة 1937/03/09/112 ص2

2- أنظر مبارك جلواح البلبل المقفوص في أبي اليقظان، الأمة 1937/3/9/112 ص2

3 - المصدر السابق نفسه

السماء، فتزداد مقالاته غموضاً، واندياحاً في السوداوية حين يطلق العنان لنفسه؛ لأنه ينبش في أعماقه، ويحفر في الفضاء الإنساني بحثاً عن الحرية، مما يجعله يفتح مغالق الأشياء، فإذا به أشد إغلا في روحانية الإنسان العاشق للنور، يقول (٥) (ويك أيتها الألحان المرنات رنين السهام بين حنايا الضلوع! هل لك ما أبقت لي الحوادث من ذماء، وخلفته من الكوارث من رمق؟ حتى رمت القضاء عليها بما توحينها لي من أنات الفرع وأهات الاحتضار، وويلك يا قدمي هل لك أن تسعفيني بالمسير؟ نحو مبعث هذا الأئين المفتت للأكباد حتى نقف على هذا المغرد النائي؛ فنكشف عن سر نواحه، والبكاء؛ إنك لا تحملين فوقك إلا عظاما ناحلة، وعروقا فانية؛ نظمها إهاب بالي في شكل جثمان وهيك انسان؛ سيرى بي أسري فما النائح بالبعيد!!!)).¹

فالبعد التحرري في مقالات مبارك جلواح باد في كل بارقة، وفي كل سطر من نفثاته، إذ تمتد من الذات لتغطي الفضاء الإنساني، الكوني، ولذلك تراه يسقط ما بداخله على الأشياء، فإذا بها حزينة لحزنه، متألمة لألمه، فيتعاطف معها، فتتساق مفرديات الوجود تساوقاً إنسانياً، جمالياً أخلاقياً، وتلك هي أهم خصائص المقالة الوجدانية حين تكون رؤية صادقة، إنسانية متزنة روحياً، وبخاصة حين تلتصق بالأجواء العبقية بالحرية فتتهفر إلى الأصداء المدوية بالخير؛ لأنها نبض حياة، ودفقة شعور، تستمد إشعاعاتها من تصور الكاتب، وإحياءاتها من تجربته، وأصالة منابع أفكاره، وإحساسه بمفرديات الوجود بحرية المؤمن، وإطلالة المدلج في فيافي الحياة، ومهامه الكون، يقول مبارك جلواح مخاطباً عصفوره الحزين وبلبله ذا الصوت الرخيم: ((يا أيها المضطرب بين برائن النوى، وأظافر البعاد، ويا أيها المرتبك بين أحابيل الأسى وأنيار الأنكاد؛ هون عليك بعض ما تجدد... واقصر عن عتاب الدهر، ولام الزمان فإنك المتسبب الوحيد فيما صرت إليه، والباعث بنفسك إلى هذا الخيس الموصد لأبواب الخلاص في وجهك، والمستمر في غلق نوافذها من حيث أردت فتحها، وذلك بما تتفنن في إرساله من الألحان والأنغام بين أونة وأخرى؛ تلك الألحان التي بذرت لك بذور الحب والهو في قلب صائدك أغرته على اقتناصك، وامتلاكك إلى أن ترصد لك بتلك الأشراك والحبائل التي

أوحشت منك الوادي، وصيرت بعدك عزف الجداول تشجيا وانتحابا، ورقص الخمائل نواحا واضطرابا)).

فهذه المقالات الوجدانية تواصل بين الأنا والآخر، بين الإنسان، ومفردات الحياة مما أوجد مناخا تتواصل فيه الكائنات، وتتمازج المصائر مما أعطى للنص دلالات إنسانية مرتبطة بأجواء الحرية لكل المخلوقات، من أجل البلوغ إلى الكمال الإنساني، والسعادة المطلقة، ولذلك أصر الكاتب على هذه الأجواء رغم تباعد الفضاءات فالعصفور ما كان له أن يكون سجيناً لولا ألعانه التي أسرت الإنسان فاصطاد البلبل ليتمتع بألعانه، ويتلهى بأشجانه دون الإحساس بمعاناته، إنها لعبة الأيام حين يعبث القوي بمظاهر الجمال، ويجعلها لذة حسية، ومتعة نفسية، ولا يحاول أن يترك الكون جميلاً وبهذا يدنس الصائد ((الاستعمار)) الكون والحياة، ويحول كل شيء لا يوحى إلا بالوحشة والقفار، لأنه عدو للحياة؛ عدو للجمال؛ عدو لتناغم الأشياء واتصالها، وبذلك قضى على أعظم رابطة تربط المخلوقات، وهي رابطة العاطفة ووشائج الحب، وهذه الرؤية فطرية لأن: ((الكتابة شعرا كانت أم نثرا... هي في جوهرها مسئولية والتزام، حرية، وانعتاق واثبات للذات نحو المنشود، وعق من القيود، وحلم بلا حدود))¹

هكذا يللم مبارك جلواح جرحه الذاتي، ليكون جرحاً كونياً؛ جرح أمته، ووطنه، وكل كائنات هذا الوجود الذي انعدمت فيه القيم، وماتت فيه المثل العليا، حين يصبح الجمال أنانية وحبا قاتلاً، وسببا من أسباب الاستعباد، يقول مبارك جلواح ((لولا حبه إياك ما سعى في الاقتراب منك يا جمال السباسب والروابي، ويا مضطرب الربارب والأسراب... ولولا الحب ما أمسيت مغلولاً باكياً؛ حزيناً واشتياقاً إلى تلك الحرية العذراء؛ تلك الحرية التي ربيت بين أحضانها، وشببت بين ذراعيها، وارتشفت من بين ثناياها العذاب، الشيمات؛ نطف الحياة الحلوة الباردة بين الحقائق والغدران؛ فيالها من تاكله، ويالك من ثكول!!!!))

بهذا البوح يكشف لنا الكاتب عن انقسام الإنسانية، وعن فضاءات التصور المادي، حين يتخلى الإنسان عن إنسانيته.

¹ - فوزية الصفار الزاوي، قراءة في أنثى الماء، لأمال موسى الحياة الثقافية، تونس 1996 ص 63

وهذه نظرة إنسانية، لأن مبارك جلواح: ((لا ينظر لهذا الطائر كما نظر الأقدمون... وإنما ينظر إلى البلبل نظرة مختلفة، فهو مظلوم مثل الشاعر؛ ظلمه الإنسان... القوي الذي لا يشفق على الضعفاء، ولا يرحم المستضعفين، بل يدوس عليهم... فالضعيف لا يسلم من الدهر أو من الإنسان، فالشاعر يربط بين واقعه وواقع هذا العصفور كلاهما يعيش في مأساة))¹ وهذا يعود إلى أن الوجداني حساس، شديد التعلق بالطبيعة، والكون والحياة فهو ((يتجاوب مع الطبيعة، بناجيها ويستمتع إليها، ويصغي لكل خفقة تصدر من الكائنات حواله؛ وجدنا شاعرنا وهو مجروح الفؤاد مثل البلبل وجدنا فيه صاحباً جريحاً مثله، واندماج في الموقف حتى أصبح يشعر بأن هذا العصفور يمكن أن يخاطبه ويتحاور معه، ولما كان يلقي اللوم على البشر فيما عانى فإنه أيضاً يحمل الإنسان ما يقاسي منه زميله في المحنة))²

ولعل هذا يعود إلى إدراك الكاتب بأن الإنسان قد تدنى إلى دركات السُّلَم، فكان اللا توازن، واللا انسجام مما عمق الهوية بين الأنا والآخر، بين الإنسان والعصفور، بين الإنسان ومفردات الوجود؛ حين يسود فكر الاستعلاء والاستكبار، وحب الذات، ورغبة أسر الآخر؛ دون العودة إلى الفطرة التي يجب أن تكون هي لحمته، وسداه، ومصدره، وباعثه، في أجلّ مظاهر الإخاء، والعدل، والحق، والجمال، لأن الفطرة تغرس فينا سمو النفس عن التوافه، وتزرع بين جوانحنا التناسق المتزن بين مفردات الحياة؛ لا التنافر، والتقاتل؛ بل تعلمنا الارتباط بالحياة الحرة بصدق، وإخلاص، والتوق الأبدي إلى الحرية؛ بأشواق مشرقة؛ وأحلام تعطرنا؛ لا تية ولا ضياع، بل إيمان، وجهاد، ولعل هذه الهواجس تعود إلى أن ((المبدع وهو يكتب يمر بأزمات حادة، ويدخل عالم الفوضى، وتهتز نفسه فيبدع))³ ولذلك تراه يبوح بلواعجه التي أضنته عن طريق الإسقاط؛ بلغة مناسبة، ثرية الدلالات موحية المعاني، ثرة الصور، لأنها ومضات تحمل شحنات عاطفية، ومعان سرخسية، وتداعيات في عالم تسوده العبودية، وتفتقد فيه الحرية، مما جعله يحن إلى المطلق النظيف؛ فالنسمة العلية تنعشه ولكنها لا تطفئ نيران الحرية في أعماقه؛ لأنها حملت إليه صوت البلبل المقفوص الذي نكد عليه صلواته في محراب

¹ - د/عبد الله الركبي، الشاعر مبارك جلواح من التمرد إلى الانتحار، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986 ص 151

² - المرجع السابق نفسه ص 153

³ - فوزية الصغار الزاوق، قراءة في أنثى الماء لأمال موسى، الحياة الثقافية تونس ص 65

الحياة، وأحي آلامه، وبعث لواعجه من جديد بصوته الحزين، مما أشعره بالعبودية وتلك طبيعة الوجداني في البحث عن الحرية، حيثما ارتحل: ((فكأنه يتحرى عن مفقود ضائع لا يعثر له على أثر في هذا العالم))¹، ولذا يقف موقفا حائرا؛ موقف المتألم من فقدان الحرية التي أصبحت ضائعة، مطموسة في حياة الناس، والطيور، والحياة معا لأن الاستعمار دنس الوجود بجرائمه من جهة؛ ولأن الإنسان أصبح عدوا لأخيه الإنسان، وكل ما يحيط به من جهة أخرى، فهو لا يرى إلا حرته، فساد قانون الأقوى؛ قانون الغاب، وتلك مأساة الإنسان الشاعر الحساس الذي يفتح مغالقات الأشياء، ويسيح فيها ليرينا حقيقتها، ولكن أعين البشر تأبى أن تقربها ولذلك لا تعيش مثل هذه المقالات الوجدانية إلا في قلوب مؤمنة ونفوس عظيمة، وعيون ترنو إلى الحق، وترى جمال الوجود في جمال مظهره.

ثانيا: ابن باديس*: الإمام عبد الحميد بن باديس يخلق في أجواء إنسانية إيمانية بعيدة الغور حين يقف محدقا بكلتي عينييه في مظاهر الحرية متألما، متحسرا، بكل لوعة، قائلا: ((أيتها الحرية المحبوبة، تحتفل بأعيادك الأمم، وتنصب لتمجيدك التماثيل، وتتشادق بأمجادك الخطباء، وتتغنى بمفاتتك الشعراء، ويتفنن في مجاليك الكتاب، ويتهالك من أهلك الأبطال، وتسفك في سبيلك الدماء، وتذك لسراحك القلاع والمعقل... ولكن أين أنت في هذا الوجود))².

هكذا تصبح "الحرية" سرا، ولغزا تسحر الناس لكنهم لا ينالونها، لأن كل هذه المظاهر ما هي إلا استهلاك لعواطف الناس، وسرحان في عوالم لا تمت إلى الحقيقة بشيء، وكل ذلك لأن الإمام عبد الحميد بن باديس وعى حقيقة الحرية، هذه الحرية التي يتهالك لأجلها الناس، ولكنهم بعيدون عنه ((كم من خطيب فيك مفوه وقد كم من ذكراك الأفواه !!!!

وكم من شاعر فتنه جمالك ولكن لا شعور له مع المستعبدين، وكم من كاتب يلبسك الحلل الضافية من نسج أقلامه ولكنه لا ينيالك خرقة بالية من صنع يده وكم من أبطال اسنشهدوا لإنقاذك ولكن خلفهم ممن قضى عليك في مهديك !!!!

1 - إيليا الحاوي، في النقد والأدب ج 4 ص 155
* - ولد سنة 1889 بقسنطينة، وتعلم بها ثم انتقل إلى جامع الزيتونة فتنجح سنة 1912، وبذلك بدأت رحلته الإصلاحية في الجزائر بمعية جمع من العلماء الأجلاء، إلى أن مات في 16 أفريل 1940م
2 - عبد الحميد بن باديس، جريدة البصائر، عدد 1939/07/28/176.

وكم من دماء زكية كتبت بها صحائف تاريخك، ولكن محتها دماء قلوب تجدرت
دموعا من الجفون!!!

وكم هدم لسراحك ما هدم ولكن بني على أنقاضه سجون للأحرار!!!

فأين أنت أيتها الحرية المحبوبة (!!!).¹

إن الحرية في فكر الإمام ابن باديس، حرية مثالية، وليست حرية أقوال
وخيال: إنها روح تسري في كل شيء، ولذلك وقف هذه الوقفة الوجدانية التأملية،
راحلا في التاريخ، مستحضرا مشاهدتها؛ بكل ألم، والحرب العالمية الثانية بدأت
نيرانها تحصد البشر، بل إن هذه الحرية التي يتشوق بها المستعمرون الفرنسيون،
ويحتفلون بها ويتخذونها مبدءا من مبادئهم، يؤثرونها بأيديهم، ويدفنون طالبها في
سجونهم لأن الإنسانية انطمست في قلوبهم، ورحلت عن واقعهم، ولم يبق منها
سوى كلمات وشعارات في أعيادهم، ودايتهم؛ لأن الفكر الاستعماري فكر
مقلوب لا يرى الحرية إلا لجنسه، وأتباعه، أما الشعوب الأخرى فهي لا تستحق
نورها ولا بصيص أمل لها، مما حول الشعوب إلى عبيدا في عصر الحرية
(فتشت عنك في قصور الأغنياء فوجدت القوم قد استعبدتهم الدينار والدرهم —
تعس عبد الدينار والدرهم — وغلت أيديهم إلى أعناقهم الشهوات!!!)

فتشت عنك في أكواخ الفقراء فوجدت المساكين قيدهم الفقر فرماهم في
غياهات الجهل ودركات الشقاء!!!!

فتشت عنك في الشعوب القوية فوجدت العتاة الطغاة قد قيدتهم الأطماع في
تراث الضعفاء... فأين أنت أيتها الحرية المحبوبة (!!!)?²

هكذا يبدو جو الحرية قائما، فالكل مشغول عنها: هذا بماله، وذاك بفقره،
وأولئك بجبروتهم، وهؤلاء بضعفهم، مما جعل الحرية مفقودة في هذا العالم، لأن
الكل مغلول؛ في هذا العالم المزيف الذي يدعي الحرية، ويتشادق بها، وينصب لها
التمائيل في الأحجار، ويقتلها في القلوب، إلا أن الحرية، مهما كانت فهي موجودة
في الحياة ومظاهرها تملأ الكون، ولا يستطيع رؤيتها إلا المؤمنون، المتذوقون

¹ - عبد الحميد بن باديس، جريدة البصائر عدد 176/28/07/1939.

² - المصدر نفسه

للجمال، جمال الحرية والعلم والمعرفة، لأن هؤلاء آمنوا بالله، وصدقوا رسله،
ولذلك ما عميت أبصارهم عن تجلياتها

((أنت الحقيقة الخفية خفاء حقيقة الكهرباء!

أنت الروح السارية في عالم الأحياء!!!

ولئن خفيت بذاتك فقد تجليت على منصة الطبيعة في بساط الأرض وأجزاء
السماء، فأبصرتك عيون اكتحلت بإثم الحقيقة، واقتبست منك عقول صقلت
بالعرفان، واحتضنتك صدور أنيرت بالإيمان، وتذوقتك نفوس ما عبدت إلا الله،
وخدمك قوم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)).¹

فالحرية لا يبصرها كل الناس، إنها روح لا يصل إليها إلا من اكتحل بإثم
الحقيقة فليست مادة، ولا شيئا يمكن أن يرى، إنها تجليات روحية، إيمانية لأنها
نعمة من الله، ولذلك يتشوق الكاتب إليها، وإلى عاشقها، وبذلك استطاع الكاتب أن
يلج بخواطره هذه إلى حقيقة الحرية لأن الإنسانية المعذبة، الجاهلة، الراكعة أمام
جبروت الاستعمار في حاجة إلى من ينير طريقها، ويكشف همومها، ويزيل آلامها
ولذلك يقول: ((آه أيتها الحرية المحبوبة، واشوقاه إليك؛ بل واشوقاه إليهم!!! المحيا
محياتهم والممات مماتهم!!!

أنقذ اللهم بهم عبادك، وأحي بلادك))²

فالحرية عند عبد الحميد بن باديس، مثل عليا في الحياة، ونور يستضاء به
في غفلة العالم، وروح خفية، ومطلب من مطالب الأحرار، وهدف الصالحين في
كل مكان، وكل هذا التحليق ليس القصد منه الوقوف على معاني الحرية، وإنما
الهدف منه إثارة المشاعر، بكل مرارة وأسى، والتعبير عن الواقع الأليم؛ واقع
استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وهو في كل تصوّره لا يصدر إلا عن عقيدة
راسخة، وإيمان قوي، وتصور انفعالي، رابطا بين شعبه وذاته، بين الأنا والآخر
في سلسلة فكر، وجمال الرؤية، وبديع التصور، مما جعل نصه هذا نصا ذا بعد
إنساني عميق الغور. وهو في نصه هذا يكشف فداحة المأساة في العصر، كما يبرز
التناقض الهائل بين أقوال، وأفعال المستعمرين، والحكام عموما، هؤلاء الذين

¹ - المصدر نفسه

² - المصدر السابق

ينصبون التماثيل للحرية بيد ويشنقون الأحرار بالأخرى، لأن هؤلاء لم يدركوا القيمة الحقيقية للحرية، ولم يشعروا بها لتكون لهم محرراً من الاستبداد الذي يهيمن على المعمورة، لأن الحرية تحتاج إلى العلم لتحرير العقول، وإدراك كنه النفوس، لتعرف مدى حلاوة الحرية ومرارة الظلم، ولذلك كان السؤال المفارقة أين أنت أيتها الحرية في هذا الوجود؟ وكان الجواب اليقين في آخر فقرة من نصه بأنها متعلقة بالإيمان، والعلم والمعرفة، أي إن الحرية لا يعدمها إلا الجاهلون، ولا يدركها إلا العارفون بالله.

وهذا النص لون من ألوان المقال الذاتي السياسي، الوجداني الذي يتغنى فيه الأديب بالحرية، ويوخز بواسطة استفهاماته الغافلين النائمين وينبه الشاذين الضعفاء والأقوياء معا لأن عبد الحميد بن باديس مصلح قبل أن يكون فنانا، ولذلك غلبت الناحية الروحية عليه، وطبع الهدوء أفكاره، فكان السرد التأملية في الواقع والحياة هو الغالب على النص.

ثالثا: رمضان حمود: وإذا انتقلنا إلى الشاعر، الناقد، الأديب رمضان حمود فإننا نراه يعيش مأساته باكيا شاكيا في بعض خواطره الذاتية، يقول في إحداها بكل حزن، وألم، وحرمان: ((أنت يا قلبي فريد في الألم والأحزان، ونصيبك من الدنيا الخيبة والحرمان

أنت يا قلبي تشكو هموما كبارا وغير كبار !!!

أنت يا قلبي مكلوم، ودمك الطاهر يعبث به الدهر الجبار !!!

ارفع صوتك للسماء مرة بعد مرة؛ وقل لهم: إن الحياة مرة !!!)).¹

إن هذا الحزن عميق الدلالة؛ إنها المشكلة الدائمة؛ مشكلة الخلود، والمعاناة، مشكلة الغربة، والعذاب المتأجج في صدر كل إنسان حساس، رقيق، دقيق الشعور، بل ضرب من الصوفية، وثورة على فساد الحياة، وشعور بالخيبة وتحرر عن ذاتية الذات في هذا الخضم المتلاطم العميق الأرجاء. نظرة ((تفصح عن عذاب الروح

* - ولد بغرداية سنة 1906، وتوفي سنة 1929، شاعر وكاتب، وناقد له كتاب بذور الحياة، وقصة الفتى، وأشعار، ومقالات نشرت في وادي ميزاب، وجرائد ابن باديس، انظر د/صالح الخرفي، حمود رمضان المؤسسة الوطنية للكتاب ط1 1985

¹ - رمضان حمود، يا قلبي، أبو اليقظان، وادي ميزاب ع 95 1928/08/10 ص 37

الأسيرة في جسدها بين جدران العالم، وغربتها عن وطنها الأصلي؛ حيث كانت تعانق الحرية والحقيقة والسعادة¹ إلا أن نغمة الحزن تتحول إلى نغمة للحنين، والابتهاال، لأن الابتهاال ((شعور إيماني بعيد الأغوار، ويقين تصدقه الحماسة والإصرار وليس تأملا ذاتيا))² فقط؛ لأن المؤمن يعاني توترا نفسيا، وروحيا، فهو لا يقر بضعفه أمام الآخرين، ولكنه يبوح بأسراره إلى الله لأنه القادر على كل شيء، ولأنه فوق جميع الأقوياء وبذلك يكون الدعاء استغاثة حبيب مرهف يرغب في الحرية، ويشمئز من ذل العبودية، يقول رمضان حمود: ((أعني اللهم على اجتراحها - مرارة الحياة - أمددني بقوة فإني غير قادر على احتمالها، اللهم إنها مرة ثقيلة فليس لي فيها طريق))³

هكذا تكون الوجدانيات: نفحات ربانية، ونفثات إنسانية، تمتاز بالصدق العاطفي، والنفسي، مما يجعلنا نعيش تلك الاحساسات العميقة، والفيوضات العفوية المثالية وبخاصة حين يحس الكاتب أنه ضعيف، فيتعلق بالقوة العليا، ويروح في ابتهاالات إيمانية كبرى، مما يحول خاطرته إلى مناجاة في محراب التوبة والاستغفار.

إنها نوع من البحث عن الخلاص من زيف الدنيا، ومرارتها وآلامها، إلا أن هذا الألم الذاتي يتحول من المجال الضيق إلى المجال العام أي من الذاتية إلى الجماعية، فإذا سر المأساة يبدو أمانا واضحا حين تتثال العواطف والهواجس عليه، يقول رمضان حمود جامعا تفعيلتين لا تجتمعان إلا في شعر التفعيلية:

يا قلبي لا تبك على حظك المنكود!!

ولكن رحمة وشفقة على شعبك المكود

يا قلبي يقولون إن البكاء ضعف في العزيمة!!

وإن الشجاع الصبور لا يجزع عند الهزيمة!!!

¹ - إيليا الحاوي، في النقد والأدب ج4 ص 155

² - أحمد مختار البزرة، الأسر والسجن في شعر العرب ص 481

³ - رمضان حمود، يا قلبي، أبو اليقظان، وادي ميزاب ع95 1928/08/10

نعم...أنت لا تبكي جزعا ولا يأسا، ولكن ليبعث فيك حر البكاء شدة وبأسا...إذن فابك من الدموع مدرارا، فلبكاء شرف وذمة مهما كان حريقا¹

إن البكاء هنا ثورة باسم الإنسانية، والقيم، والمبادئ لإيقاظ النائمين، ونشر الوعي، وبعث الذات المنصهرة من جديد، إنه تفجير للطاقات المتحدية في مرحلة الصراع، فالبكاء نفثات تطفو على السطح في لحظات التمزق، والقلق، إنه تنفيس وتطهير من آثام البشرية، بل ضرب من المقاومة، إلا أن مأساة الشعب الجزائري تفوق مأساة الكاتب في غمرة الابتلاءات فيتوهج باكيا شاكيا إلى الله؛ وتلك قمة الأوبة إلى الله، وإلى رحابه الواسعة من أن يخفف آلام الداعي، ويرفع عن كاهله هموم الحياة، وبذلك تكون مثل هذه الخواطر شكوى نفسية عاجلة من مؤمن بيوم النصر لقضيته، وهذا منتهى التسليم للخالق، والإيمان بقوته، وعدله، ولذلك تكون الاشراقات الربانية، ويكون البكاء المطهر من كل الذنوب، والآثام، الباعث على التعلق بالحق، والاتصال برموز الحياة، ومفردات الوجود؛ فتكون الحرية غريزة فطرية سرمدية في المؤمن الذي يهفو إليها دون موارد؛ لأنه لا يرى نفسه إلا في أتون الإنسان وهجير الحياة، فيرفع أكف الضراعة قائلا: ((ما أجملك أيتها الحرية! وما أفضحك! جميلة لأنك نور الله ينير طريق الإنسان في هذا العالم المظلم؛ وفظيعة لأن الأسباب الموصلة إليك لا تخلو من الدماء والأهوال التي تقشعر منها الجلود)).² فهذا الشعور الإنساني ناتج عما يعانيه الإنسان من أنواع الاضطهاد وأصناف العذاب النفسي، مما يفجر بداخله هذه الخواطر في الأزمات لأن الإحساس بالحرية والرغبة فيها يولد الألم، ويفجر العذاب في ساعات التأمل الباطني، حين يحاول الكاتب سبر أغوار نفسه وواقع أمته، فيصاب بالذهول لما آل إليه مصيره، ومصير أمته فيحاول المقاومة، ولكن ضعفه البشري يتغلب عليه فيكون فريسة للألم والعذاب، والشعور بالزمن في فيافي الاضطهاد؛ فيصور مقدار النكبة التي نكب بها، ولا يستسلم أو يخضع، ولذلك يقول: ((بأي حق، وبأي قانون، وبأية شريعة تكلم أفواهنا، وتخلق أنفاسنا، ولنا ضمائر حية، وقلوب حساسة...تريدون أن تبتروا أيدينا، ونقبل أيديكم، وتسبوننا ونمدحكم، هذا محال لا

¹ - رمضان حمود، يا قلبي في أبي اليقظان، وادي ميزاب ع 95/10/1928

² - د/صالح الخرفي، حمود رمضان، المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1985 ص 67

يقع ولن يقع مادام لنا ذرة من النخوة والإباء، ومادام الدم العربي يجري في عروقنا¹)).

ولعل هذا التصور هو الذي جعل الحزن والقلق يلزمان الكتاب الجزائريين مما جعلنا ندخل إلى عوالمهم النفسية الحزينة، ونتعرف على أحاسيسهم، وندرك اصطدامهم بالحوازر حين يحاولون تأمل الواقع المرير فتتماوج نفوسهم، وتتململ فإذا بهم في سرحات تاريخية حاملة، يقول علي بن حالة أحد كتاب جريدة المنار: ((في الأيام آمال واسعة، وأحلام جميلة، قائمة في نفوس طائفة من المستضعفين الذين يطمحون إلى السعادة، ويمدون أيديهم إلى حياة كريمة، وعدالة يرجونها، ثم لا ترجع إليهم إلا وهي مبتورة الأصابع، مضرجة اللون، مرضوضة السواعد؛ في الدهر عود يضاحكه النسيم، يجفف أوراقه في أيام ربيعته مع عرائس أزهاره، وعود عدت عليه الأيادي، وغيّرت حاله الليالي يبكي نفسه برنة أوتاره²)).

هكذا كان الأدباء الجزائريون يحدقون إلى الحرية، ويرنون إلى نسائهم، ويعيشون هواجس المستضعفين ويتوغلون في الحياة بأساها، وألمها ويعيشون في أحلك ظروفهم النفسية مأساة الشعب الجزائري، ولعل هذا ما جعل مبارك جلواح يرسم صورة الفجر الآتي في إحدى خواطره المعنونة بعنوان بين الشلف والرميل³ والتي يقول فيها:

((أقبل الصباح في حلته اللجينية المؤتلفة الواضحة، وعلى مفرقه تاج الغزالة المشرقة اللامحة، تلوح من ميدان الفجر الأبلج الوضاء؛ يختال عجباً وكبرياء بما أحرز عليه من الانتصار، وظفر به من الفوز على خصمه الليل البهيم؛ وعدوه الألد العظيم، فقام الكون وقعد، وركع الوجود وسجد فرحاً وسروراً بإقباله الخطير، وظفره الكبير، وابتدرت الرياحين - والشهر شهر آذار، والفصل فصل الربيع - بتحيته مبتسمة الثغور، فواحة العبير؛ ما بين ورد أحمر عطير، وبنفسج أزرق نضير، وتسابقت لتهنئته بهذه الخطوة البديعة، والمكانة الرفيعة اعراف النعامي، ونسمات الصبا الشيمة للعبوة، العابثة بأفنان السرحات... بساحات الرياض الغناء

¹ - المرجع السابق ص 67

² - علي بن حالة، عيد الحرية ومآنتها، المنار 47 ط 63 أغسطس 1953

³ - مبارك جلواح في أبي اليقظان، الأمة ع 117 13 أبريل 1937

العازفة بأناملها اللطيفة الخفية على أوتار أوراقها الندية الباكية بدمع الغمام سفر هذا الصبح السمعة الجميل الطلعة من وادي الرميل المتدفق الساري وأنا على وادي الشلف المترقرق، وقفت منحني الهامة، مفتت الكبد، منفطر الجنان، شارد البال، مترنحا بين عواصف الآلام ودوامس الآمال على هيئة الدرفس الخفاق في ساحة الوغى¹.

هكذا استوقفنا الكاتب ليفتننا، وليبوح إلينا بمكنونات صدره، وهموم نفسه، وتطلعات فكره، وهكذا تتحول التجربة الأدبية عبر الحساسية الفنية إلى معين لا ينضب ((في نفس الأديب ليعبر عن حالته الكائنة ومآله الصائر بما يصور عادة نمطا من التجارب الإنسانية؛ فإذا الأثر الفني يتبوأ منزلة الأدب الإنساني))² الذي يحمل تناقضات الحياة، وحساسية الفرد بالجمال المطلق في الطبيعة، وتعاية الإنسان، إلا أن هذا قد أفسده الإنسان.

ومع هذا الصبح الجميل تكون السرحات الإنسانية الخالدة في مسامات التاريخ، حيث الأصالة جالسة على كرسي الوجود، والفطرة تلون كل موجود، ولكن تكون العودة إلى هذا الزمن الأعبر، زمن الاستعمار، والذل والهوان، فيقف الكاتب متسائلا ألف سؤال وسؤال، قائلا: ((مالي إذن لا أرى، ولا أسمع على ضفاف هذه الأودية المائجة، وعلى هذه الربوات الزهراء إلا ثعالب تعدو، وسراحين تعوي، أو قطيعا من الشاء حائرا تائها في الفدافد والشعاب لا يجمعه إلا هول ما يفاجئه بين أن وآخر من صور قاسية، ووحوش غاضبة هائجة؟!)). ويأتيه الجواب على لسان الهاتف؛ هاتف الليالي، والتاريخ، والحضارة، والسكينة الكونية العميقة الرؤى، البعيدة الغور، قائلا: ((تلك جنابة الليل الحالك الأغصاف الذي مدت رواقه عليهم يد الجهالة والضعينة حتى أسلموا - وهم مرغمو الأنوف - هامهم إلى وسائد شانكة إذعانا لإرادة الوسن الجبار من غير أن يستظلوا بظل الحراسة الظليل ولا أن ينتبهوا من مكر ذلك الشاني اللدود الذي كان يترقب فرصة إغفانهم، وكراهم فكان ما أنت تراهم فيه من العدم بين أحضان الوجود)).³

¹ - مبارك جلواح في أبي اليقظان، الأمة ع 117 13 أبريل 1937

² - د/ عبد السلام المسدي، قراءات، الشركة التونسية للتوزيع، 1984 ص 17

³ - المرجع السابق نفسه

وبعد هذه السرحات الخيالية التاريخية الهادفة يقف الكاتب بين "نهرى" الشلف والرميل، يفسر حديثهما فيتناوب الحاضر والماضي ((فتصبح القراءة تبعاً لذلك ضرباً من الترحال بين الأزمنة))¹ لأن الشلف، والرميل ما هما إلا مرآة الواقع الحضاري في الماضي، والحاضر معاً؛ بل من أهم رموز الحنين إلى الأصل، وهذا أخذاً بالمثل الشعبي ((ما يبقى في الوادي غير أحجاره))، مما يوقظ في النفس معانٍ جديدة، هي معاني العزة، والحرية، والانعقاد من الواقع الدامس بكل نعوت العدم، فيكون الجواب ((إن ما سمعته من هذين النهرين من الأنات والأهات، ورنات الحنين إلى ماضيها الزاهر لهُو نجوى كل ما في هذا الإقليم من الموجودات حتى جوامده كالحجر والثرى، ولكنني أتعجب كثيراً منك كيف اقتدرت على سبر غور مدى النмир الأبيكم، وذهلت عن فهم كنه شدة الطير الأرخم؟)). بهذا السؤال يرفع الأديب الستار عن ثنائية المأساة والتمزق في الكيان الإنساني إلى قمة الخيال، والرمز، لأن الجواب تتجلى فيه الكلمات والصور التي ترسم ملامح النقاء السماء بالأرض، وتتولد منه الصور وتنساب مرتدية من حلم الكاتب طابع التحرر حين تلقى تربية الإنسان، وروحانية السماء، حين يلتقي صوت الشحرور بصوت الماء، ويمتزجان لتنساب الأنغام، والظلال في رغبة محمومة إلى إيقاظ الرقود: ((ما كنت بالذاهل... وإنما كنت أتحين فرصة توحيد أنغام المياه وألحان هذا الطير الغريد، لأخترع من اللحنين نغمة جديدة تكون جامعة لسحر ما سمعته من تلك الأنغام والألحان حتى أبرزها لسامعيها أعجوبة تخفف عنهم أقال هذه الحياة التعسة الحرجة))² إن مهمة الكاتب هي التخفيف من آلام أمته، وعذاباتها، إنها المواساة للعليل، ولذلك يكشف في آخر مقاله مبتغاه، وينزل من تحليقه، وحواره الرمزي إلى الواقع، فإذا الخطابية تعود مرة أخرى إلى خاطرته، يقول: ((لا سفر لي غير سفر الكائنات ولا معلم غير أستاذ التصارييف.

أيها الشباب العزيز ذا وطنك خضراؤه، وغبراؤه، بره وبحره، وترابه، شجره، وزهره؛ يستغيث بك، يرجوك أن تخفف عنه بعض ما بات يعانيه من

1 - محمد لطفي اليوسفي، الشابي منشقا سراس للنشر Cérès تونس 1996 ص 46

2 - مبارك جلواح، بين الشلف والرميل في أبي اليقظان، الأمة ع 117/ 13 أفريل 1937

مظالم هذا الزمان الجائر، فهل أنت مغيثه من مصابه؟ وملب لدعائه... أم لا زلت في حلمك غارقاً؟¹

فالمسألة مسألة النوم، والحلم، والإغراق في الخيال، دون حراك، ولذلك تكون مقالات جلواح كما يقول في مكان آخر: ((هي من عبرات الروح الذائبة على جمر الأسى، وزفرة من زفرات الفؤاد المكلوم بسهام الكآبة والشقاء)).² كآبة الشاعر المبدع حين يحترق من أجل المجموع.

فمقالاته تجسم المحور العاطفي الوجداني ضمن ظاهرة التمزق الذي يعانيه، ولذلك فهي خواطر تأملية، ذاتية، تنعكس فيها المنبهات الخارجية، بل هي ضرب من أحاديث النفس في حالة قلقها، وحزنها، ومرورها بالآزمات الحادة ولذلك لا ترى مبارك جلواح إلا وهو يحدق إلى الحرية ويرنو إلى المستقبل بعين دامية وفكر حزين، ونفس قلقة، راسماً صورة آلامه على أديم النص للكشف عما يختلج في نفسه، وما يعتلج في روحه متخذاً من الطبيعة رمزا لحضور الوعي، ومسارب تتسلل منها الحياة، والثورة، وبذلك وعى مشكلة زمانه، وعاش آلام عصره، وأبعاده التحريرية؛ فوشح مقالاته بالألوان، والأضواء والتراخي، والتجلي، فكانت مرايا نابعة من وعيه، مستمدة من واقع الجزائر ووافدة من أصقاع الوجود المتحرر، لأن هذه المصادر لها وشائجها الظاهرة والخفية وبخاصة حين التحامها.

هذه أجواء داخلية وخارجية تتصلان، وتتحدان ليعبر الموقف عن الشعب الجزائري المضطهد من قبل الاستعمار، ولذلك تبدل كل شيء حتى الطبيعة حزينة، وهذا ((موقف فني عام صدر عنه الرومانسيون فهم يعمقون التجربة من خلال الإفاضة والإسهاب في ذكر المعالم الخارجية والأفكار والتأملات والانشيالات العاطفية، والفعل وردة الفعل لأن الرومانسية كانت تتور وتهتدي بهدي الانفعال وتقده)).³

إن مبارك جلواح كانت مقالاته تنثال انثيالاً، بل كانت شاعريته نبعاً يتدفق بالأسى، والحزن، وكانت هذه المقالات تتضوع بالمعاناة، وتتسريل بالاعترافات الشعرية. بقول:

¹ - المصدر السابق نفسه

² - مبارك جلواح هي من البحر الناقص، الأمة 119، 1937/04/27

³ - إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة بيروت ط2 1983 ص77-76

((ويلتاه خذا يدي من وهادي!!!

هذه أدمعي، وذاك فؤادي!!!

خليا ذكر سؤدد قد تقضى تحت كل عصر تلاد!!!

واشهدا مصرع الفضيلة كلمى تحت أقدام قارعات العوادي)¹

ولعل هذا التفرد الحزين الذي يميز أدباء الجزائر في هذه الفترة له ما يبرره نفسيا، وموضوعيا، وحضاريا، لأن الجزائر كانت في وهدة الجهل، وفيافي الضياع، وسباسب الاستعمار، مما عمق ظاهرة الألم والعذاب، فالكاتب ((لا يعبر عن تجربة منفردة خاصة تنقل لنا شعوره وإحساسه بالمأساة، وإنما هو نوع من البكاء الذي يشارك فيه غيره في المأتم))²

هكذا يثور مبارك جلواح عن الماضي؛ الذي مازال يلوكه كثير من المتفوقين ويبوح بسر آلامه، ومعاناته، لأن الفضيلة غاض نبعها في بلاده، فهي كلمى مصروعة العوادي؛ هدف لنافذات القضاء.

هذا من حيث المقالة الوجدانية ذات الظلال الحزينة، أما المقالات العامة فإننا نجد منها كثيرا وبخاصة مقالات المناسبات الدينية المثيرة للأشجان، والآلام، ومن ذلك مولد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يذكر المسلمين بمآسيهم في الحاضر، وسؤددهم في الماضي، مما يجعلهم يعيشون ذلك الواقع الأثيري، واقع الرحمة، والنور واتصال السماء بالأرض.

خامسا: بلقاسم بن أرواق ومن ذلك مقالة لبلقاسم بن أرواق³ تحت عنوان: في هذا الأسبوع تنتشر الرحمة الإلهية جناحيها على البشر، والتي يقول فيها ((في هذا الأسبوع تفتحت وردة الحياة الروحية التي ظلت قرونا ترمق العالم من وراء حجاب!!!

¹ - مبارك جلواح، مصرع الفضيلة، وادي ميزاب ع 1927/12/23/62

² - د/عبد الله الركبي، الشاعر مبارك جلواح من التمرد إلى الانتحار ص 17

³ - بلقاسم بن أرواق ولد في بني يزقن غرداية سنة 1906، من أهم كتّاب وادي ميزاب، حفظ القرآن الكريم ثم رحل إلى تونس للتزود بالعلم، ثم عاد إلى الجزائر ليشارك في النهضة الأدبية، والتجارية، توفي صغيرا يوم 1937/11/16، انظر أبا اليقظان، الأمة ع 1937/12/22 147.

في ليلة من هذا الأسبوع طلع فجر الإسلام، وانبثق نور النبوة الساطع من بطن مكة إلى بطاح مكة، ومن البيت العتيق إلى طيبة، ومن ثم إلى نصف الكرة الأرضية التي لما تزل تحفظ هذا النور بين أحشائها حادية والهة، والتي لم تزل تستشرف سناه¹.

فهذه المقالات الإيمانية لها وشائج في نفس الكاتب، ولها عمق حضاري في تصورهِ، ولذلك تكون سباحات، ومشاعر مما يجعلها متحركة، موهلة في النفس والتاريخ معا غائرة في واقع الاستبداد، والخطوب، لأن الكاتب يلتجئ إليها بعاطفة جياشة، وإيمان صادق، وذهن متوثب، وجوانب متقدمة، فيعيش هنالك وكأنه يرى الموقف، ويتأمله عن قرب، ولذا تراه في استرسال ذكرياتي قائلا: ((في هذه الليلة من كل عام!! في هذه الليلة! وفي بحر هذا الأسبوع نهد الحق للباطل فذك صرحه، وقوض ركنه وراح ينشر العدالة بكل معانيها، ورفع الواد ذك الوثنية، وهدم الأصنام، والدمى، وقوض عروش الترك وحقق الدماء التي أراقها الصلف الجاهلي تحت راية العصبية²)) هكذا تكون السرحات التاريخية حين يعيش الكاتب التاريخ فكرة، وأصالة وتصورا، ويوغل إلى عمق المناسبة فيستدعيها بشعوره، ويستحضرها بكل تطلعاته، وآماله، فتعشه، وتحمله إلى ذلك الزمن البعيد، إلى الفجر المحمدي حين بزغ مرسل أشعة نوره على المعمورة، باثا في المستضعفين حياة جديدة، حياة الأمل، والإخاء، وضياء جديدا ما كان له أن يكون لولا هذا النور الذي جعل قبائل العرب المتصارعة، والمتنافرة أمة واحدة، وجعل أولئك الرعاة، الحفاة، سادة للعالم بأخلاقهم، وسيرهم وتقانيهم في سبيل إنقاذ العالم من نير الأقوياء، وظلم بني الإنسان للإنسان، ولذلك يقول مضيئا ((في هذه الليلة، وفي هذا الأسبوع فتحت بطاح مكة عصرا جديدا للعالم مترعا بحياة غضة لم تعرف صلف الجاهلية، وعسف الرومان، وظلم فارس؛ تلك الآثام التي صوحت قلوب البشرية³)) بهذا تكون المقالة الوجدانية دفقة فنية تعبق بالقيم والمبادئ الإنسانية التي تتناغم مع المثل العليا، مثل الجمال، والحق، والخير؛ بانسيابية وعفوية، وبخاصة في الأجواء العبقية بالحرية والأصداء المدوية بالخير، لأن المقالة الوجدانية ابنة النفس،

¹ - بلقاسم بن ارواق، في هذا الأسبوع تنشر الرحمة الإلهية جناحيها على البشر، في أبي اليقظان، وادي

ميزاب ع 9/78 جوان 1936

² - المرجع السابق نفسه

³ - المرجع السابق نفسه

والشعور، ووليدة إحساس عميق بالحياة، وإيمان بعدالة الخالق، ورؤى إنسانية صافية، وسبحات في التاريخ، وعوالم الإنسان، مما يعطرها ويسمو بها إلى مقامات صوفية أحيانا، ولعل هذا الذي جعل أبا العلاء أحد مراسلي أبي اليقظان من المغرب، يقف موقفا صوفيا متألما لمقدم عيد الأضحى، سارحا بخياله في ماضي سنوات الجهل، وفيافي تاريخ الإنسانية، محدقا بكلتي عينيه، سائحا في مسامات البشرية قائلا: ((هاهي ذي آخر نجمة تنساب في حجرها، وهاهي أعلام الدجى السوداء منهزمة أمام كائنات النور المنتصرة، وهاهو ضياء فجر العيد ينير سماء الكون بلألئه فيذهب قتامه))¹.

هكذا ينهزم الكفر ويفر الظلام أمام نور التضحية، وهكذا يفتح الكون الإنساني عينيه على ضياء فجر العيد، ويمسح ما علق به من سنوات الذل، والاستعباد البشري، ويزيل عصور الضباب، لأن الذكرى جعلت الكاتب يخلو بنفسه، ويوغل فيها، مما أبرز لنا تجربته التي انسابت على سجيته في عالم الكرامة الإنسانية، ولحظات النور النائي، فسكب من وجدانه نفثات مشحونة بالهفة، والغربة، بتداع حر منفعل بهذه الذكرى، ولذا فلا عجب أن نسمع له، وهو يردد: ((استيقظ العالم من سباته يمسح عن جفنيه غبار الكرى، حيث يتأهب لاستقبال العيد، وما وراءه من هناء أو عناء، وحزن وسرور))².

فالكاتب يسرح في ثنائية الحياة حيث الناس وهم مشرببو الأعناق إلى نور هذا اليوم الإلهي البازغ من جديد على الكل دون استثناء فتكون بذلك الواقعية الانفعالية الكامنة في النفس البشرية بكل ألوانها وأجناسها، وطبقاتها، ولذلك يقول: ((تلقته بالترحيب وجوه يجري في أدمغتها ماء الفرح بمرآه، وأخرى بالنعاسة والنكد؛ يتخلل في صدرها حزن عميق، وقلوب مفعمة بالمسرة والهناء، وقلوب ملؤها البؤس والشقاء، عيون باسمة، وعيون دامعة، ضوضاء وجلبة ما بين ثغاء الشلة، وصباح الديكة، وأصوات تشوبها نبرات السرور، وزفرات تصعد من أفئدة كلمي))³.

1 - أبو العلاء، عيد الأضحى، أبو اليقظان، الأمة ع 67 1936/03/24

2 - المصدر السابق نفسه.

3 - المرجع السابق

إن هذه المقالات لو أعج وصور من الحياة، وما أكثر صور الحياة بتناقضاتها وبخاصة حين تكون صدى لذواتنا؛ فهي تمنحنا القوة الإبداعية حيث تدفعنا إلى أن نسيح في ملكوت الله بومضات تحمل شحنات عاطفية ومعان إنسانية، ولذلك يقف الكاتب موقف السارح في فجر العيد الجميل بروح يسوقها الألم، وبفكر تدفعه الحرية والانعقاد فتكون بذلك مقالاته الوجدانية تواصلًا بين الأنا والآخر، بين المؤمن، ومظاهر الكون، بلغة ثرة، وجمل قصيرة متوالدة، متصلة في نغم موسيقي حزين؛ يقول: ((أشرق شمس العيد، ومررت أسلاكها الذهبية على صفحة الوجود؛ فكانت نورا نضيء به قلوب الأغنياء، وشررا من اللهب يتقد بين جوانح الفقراء، ولكن تلك الأنوار ما فتئت أن تلاحقت بين غصون سحابة عظيمة، تلك السحابة التي تكاثفت من تأوهات صدور أولئك البؤساء، فاقتم جبين الجو بعد الإنارة وأنشأ يستعير كل ما لديه من الدموع والعبرات إشفاقا ورحمة بأولئك المساكين الضعفاء)).¹

إن مقالات الكاتب كانت ثرية بالتصور الوجداني الذي تتعاطف فيه الطبيعة مع الضعفاء، مما يولد التناغم الوجداني الحي بين مفردات هذه الحياة بحرارة صادقة، وامتداد في التصور، ورقرة في الأسلوب وفي المعاني، مما يعطيه دلالات إنسانية مرتبطة بالأجواء العميقة للحياة. وبعد هذا الوصف الجميل الرائق الذي ساقه الأسى، وحركه الألم وسربله الحزن؛ يقف الكاتب موقفا إنسانيا متأملا في دورة الزمن مستنتجا منها صروفها، وآلامها، باعثا بتساؤلاته مرسلا ببصره إلى عمق الحياة، بكل أنينه، ونفثات صدره قائلا ((هكذا مر يوم العيد كما مرت أيام، وسنون ولا أدري ما يكتمه الغد في صدره لأولئك الأشقياء؟)).²

بهذا ينهي الكاتب رحلته التي انتقل فيها من حال إلى حال بكل حزن وطيبة آمال، في انتظار ما تأتي به الأيام!!

ولعل كل هذا الحزن، وهذه السوداوية التي لازمت مقالات أدباء الجزائر في القرن الماضي كانت نتيجة للاستبداد الاستعماري وما خلفه من عذاب، وحزن عميقين في أذهانهم، وما رأوا عليه الشعب من الهون، والذل، والاستكانة، والاستسلام وبخاصة عند "الطرقية"، مما جعل الحرية أسمى المعاني المثالية التي

¹ - المرجع السابق

² - المرجع السابق نفسه

تغنى بها الكتاب، وسعوا إليها، وناجوها، ولذا كانت المناسبات والمواسم، والأعياد محطات روحية للتزود والتأمل؛ تمتد بهم إلى الأحقاب الماضية المضيئة، وترفع كثيرا من ضير وظلم الحاضر، لأن فيها اتصال الأرض بالسماء، والحق بالعدل، ولذا انتشرت روحانية الشرق في مقالات أدباء الجزائر، لأن المناسبات الإسلامية كانت منحة ربانية لهم ليصوروا آلام شعبهم، وتعلقهم بالماضي التليد ويفصحوا عن هويتهم بكل حزن؛ بأسقاطات فنية رائعة ليفتحوا أعين الناس على الحقيقة التي تثن في ضمائر الكل، ولذلك كانت المناسبة فجرا للمستضعفين.

سادسا: علي بن حالة يقول علي بن حالة، أحد كتاب جريدة المنار: ((في الدنيا أعياد، ومآتم، وفي الأيام أفراح وفيها أقراح، كم من قوم تشهد لهم الأيام والليالي بالأنس والسرور، وكم من آخرين تكتم صدور الأسجار أنينهم المنبعث من أعماق أعماق نفوسهم الكبيرة، وت شاهد أعين النجوم المتناهية في العلو تقاطر دموعهم الحارة!!)).¹

بهذه الروح المتأمل، الغائصة في عمق الزمن، والإحساس بوطاته تنساب نفس الكاتب، إذ تقف على هذه الثنائية ثنائية الخير، والشر، ثنائية النور، والظلام، ثنائية السعادة والشقاء، لتصل إلى ثنائية القضاء والقدر.

وهذه تتطوي على حقيقة فعلية صامدة في باب المعاناة النفسية مما يجعلها تبدو على أديم الحس والواقع، وتتشح بالمعاناة الكبرى ولذلك لا ترى الكاتب إلا وهو يهفو إلى الحرية ولكن دون جدوى لأن الطغاة أفسدوا على الجميع الاستمتاع بها ولذا يقول الكاتب علي بن حالة ((في الدنيا أقوام عاتية طاغية وفيها إنسانية تضمر وجهها، وانضمر غصنها، وصوح ورقها، وغار مأوها، وطال طريقها المليء بالأشواك والعقارب والحيات، وكثيرا قد لا نعلمه من عوادي الآفات؛ طريق تنزل من سمائه الصواعق المبيدة وتتفجر فيه البراكين الخطيرة، قاذفة بالموت والماء والحميم)).²

* - أحد أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وممثلها في فرنسا، وشهيد من شهداء الثورة التحريرية الكبرى، إذ كان ضابطا بجانب العقيد عميروش، ومفككا للألغام، وهو صاحب كتاب مرآة الأخلاق.

1 - علي بن حالة، عيد الحرية ومآتمها، المنار س2، ع15/10/9/1953 - الجزائر -

2 - المرجع السابق

هكذا يحس الكاتب الجزائري بالغبرة، والقهر تحت نير الاستعمار وفداحة الأحداث، ولذا كان الانفعال يسربله، والحزن يلفه، فيوغل في عمق المأساة الإنسانية، بغنائية حزينة موقعة على لحن الوجد، والذهول أما ضبابية الحياة، مما يجعله يروح في تداعيات حرة تستشرف الماضي، وتهفو إليه فلا ترى فيه إلا التعاسة، يقول الكاتب: ((في الأيام آمال واسعة، وأحلام جميلة، ولكن تلك الآمال، وهذه الأحلام قائمة في نفوس طائفة من المستضعفين الذين يطمحون إلى السعادة، ويمدون أيديهم إلى حياة كريمة، وعدالة يرجونها ثم لا ترجع إليهم إلا وهي مبتورة الأصابع، مضرجة اللون، مرضوضة السواعد)).¹

إن الأديب الجزائري يعبر عن معاناة الإنسانية قاطبة، بحركة واعية مجربة دون تلفيق، فكانت مقالاته هذه فيضا تلقائيا من تصويره الذاتي ((هي في النهاية تفاعل بينها وبين ذات الآخرين، والذات الاجتماعية العامة))² وإلا ما كان هذا التصور الإنساني للزمن، وأثره على المستضعفين الذين يطمحون إلى الحق والعدل، والنور، ولكن لا تسربل أحلامهم إلا الأحزان والآلام، فهم من شقاء إلى شقاء، وهذه جريمة إنسانية في حق الإنسانية ذاتها حين تفرغ الحياة من معناها الحقيقي، ويسود الظلم، والتعسف والاستكبار في الأرض من غير حق مشروع؛ مما يحول كل شيء إلى جفاف، وموت، فإذا الحياة سوداء قائمة تغري، ثم تقتل.

لهذا كانت معاناته موقفا إنسانيا من الكون والحياة، فتوحد مع الطبيعة، وتعاطف معها، ارتباطا عميقا من أجل البلوغ إلى الكمال الإنساني، والسعادة المطلقة، مما يدل على أن كتابنا كانوا يصرون على الحرية مهما تباعدت المسافات، ومهما اختلفت من الواقع الإنساني.

وهذه إحدى خصائص الفنان المبدع حين ((يندفع إلى التعبير الفني، فهو يندفع بالفعل إلى التعبير عن نفسه، وعما يخالجها من ألوان المعاناة، والتماعات، والخواطر، والمشاعر، فكل ما تثيره المشاهد والأحداث في نفس الفنان من رؤى، وصبابات، وأحاسيس، وآراء، وكل ما يتوتر به وجدانه في موقف من مواقفه الحياتية، وفي لحظة من لحظات سعيه كفرد اجتماعي، كل ذلك يتداعى على أثره

¹ - المرجع السابق

² - د/ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت - لبنان - ط3 1980 ص 38.

من روى في أجواء النفس))؛¹ فهو لا يرى إلا هذه الثنائية الحياتية الخطيرة في عالم سادت فيه التناقضات، وعشتت فيه الموت والحياة، وهو ما يراه الكاتب حين يقول: ((في الدهر عود يضاحكه النسيم بحفيف أوراقه في أيام ربيعته مع عرائس أزهاره، وعود عدت عليه الأيادي، وغيّرت حاله الليالي يبكي نفسه برنة أوتاره))²

فالحرية لغز غامض يبحث عنه الكاتب، ولكن أيادي الإنسان عدت على مظاهرها فحولت كل شيء إلى أنات حزينة، ورنين على أوتار الفاجعة، مما يستلزم عدلا إلهيا، وإلا فسدت الحياة من جراء عبث العابثين ولذلك يضيف قائلا: ((الأمر ما كان الزمان الإنساني مرتبطا بالنبوة... ولأمر ما كان الزمان الإنساني مجهولا، فإلى يومنا هذا لم يهتد العقل؛ ولا العلم إلى ضبط تاريخ الإنسان... وما تتابع الأشياء إلا كالألواح التي تطرد في البحر لا تختفي موجة حتى تتلوها موجة معلنة عن وجود أبدي بالتجدد على صورة متفاوتة في القوة والاندفاع، والصخب والاقتراع؛ مستمدة ماءها من بحر واحد سائرة في اتجاه واحد، تضيء بنور واحد؛ نور الله الذي تنقشع أمامه ظلمات الحقائق الأرضية، ليبصر الإنسان الطريق اللانهائي إلى الحقيقة الأزلية التي تتلاشى حدود الزمان والمكان، ويطويان طي السجل للكتاب))³.

ففي هذه المناسبات يكون الأديب متصلا بالمنبع الأول الذي يربط الأرض بالسماء، فتكون المقالات إنسانية روحية في انطلاقها لتحطيم قيود الذل، وفك إسار القهر، لأن مثل هذه المقالات الوجدانية تتفتح جدا ولها عواطف رقراقة، وتتدافع حاملة الهداية لبني الإنسان، ولذلك ترى الكاتب يعمق الوجد، ويؤصل التجربة حين يقول: ((فما الروح إلا بصيص من النور الإلهي، مما يجعلها تحن إلى مصدرها، وتتجذب إليه كلما شع إشعاع من الوحي يجذبها إلى أصلها، ويمدها بقوة تنقشع بها الظلمات المحيطة بها في سجن الحقائق الأرضية، وتتمزق الحجب المتكاثفة حولها، فتنتقل إلى عالم لا بداية له ولا نهاية، ولا مكان، ولا زمان؛ فلا ظلم، ولا جشع، ولا استعمار، كل ما هناك هو التعلق بالملأ الأعلى))⁴.

¹ - أنظر د/ ميشال عاصي، الفن والأدب ص 37

² - علي بن حالة، عيد الحرية ومآتمها، المناس 2، ع 15، 1953/10/9 الجزائر

³ - علي بن حالة، عيد الحرية ومآتمها، المناس 2، ع 15، 1953/10/9 الجزائر

⁴ - المرجع السابق

لا ريب أن هذه المقالات عبارة عن أشواق إلى العالم الآخر، إلى العالم الذي لا طعم فيه للزمن، ولا للمكان، إنه عالم النور والأبدية. ومثل هذه المقالات هي أمني يعيشها الأديب وهو يحترق بنار الظلم والجبروت، مما يشيع في النفس حالات البهجة والاكتفاء والسمو، بحيث يصبح الكاتب أعمق حسا بالوجود، وأوفر تماسكا وأكمل إنسانية، وهذه التصورات الفطرية كانت معينا لا ينضب فهي تمد الكاتب بمصادر القوة، والعزة، والثقة بالنفس، مما جعله يعود إليها من حين لآخر ليتحرر من عالم الطين، وينساح في التاريخ ويتسامى عن المحن، والأرزاء التي هزت كيانه وبذلك تكون هذه المقالات موقفا فكريا، ورؤية بعيدة الأغوار، عميقة الجذور، وليست وليدة الصدفة أو اللحظة الآنية، لأن الكتاب الجزائريين أصحاب رؤيا حضارية، ولذا كانت مقالات الوطنية تقطر ألما، وتتوهج لهفة مما جعل الكتاب يعيشون تلك اللحظات الأثرية من عالم الإنسان المغترب في تفوقه على النفس والأحداث وارتقائه بروحه إلى العالم الفسيح، عالم الأشواق، والفجر الآتي.

سابعا: إبراهيمي: ولعل أهم كاتب عاش هذه المأساة هو محمد البشير إبراهيمي¹ الذي يرسل نفثات الشوق، والوفاء، والإخلاص لوطنه، فيقول:

((تحية غائب كالأيب...!! قل للجزائر الحبيبة: هل يخطر ببالك من لم تغيب قط عن باله؟ وهل طاف بك طائف السلو، وشغلك مانع الجمع وموجب الخلو عن مشغول بهواك، عن سواك؟ إنه يعتقد أن في كل جزيرة قطعة من الحسن، وفيك الحسن جميعه، لذلك كن مفردات وكنت جمعا، فإذا قالوا: ((الجزائر الخالدات)) رجعنا فيك إلى توحيد الصفة وقلنا: ((الجزائر الخالدة))، وليس بمستكر أن تجمع الجزائر كلها في واحدة))².

إن حب الوطن يقوى في الغربة لأنه يذكر بمأرب قضيناها هناك في شبابنا، كما يذكرنا بالأهل، والأحباب، ولذا تكون الصور الحاملة التي لا تزيد الكاتب إلا تعلقا بوطنه، ومرايع أهله، ومسقط رأسه، كما يكشف لنا عن صراع الكتاب مع الحوائل، مما يبرز لنا ذلك التواصل الحي بينهم، وبين الأرض التي تعتبر رمز

¹ - محمد البشير إبراهيمي 1889-1965، كاتب، وأديب، ومصلح، من أهم أعلام جمعية العلماء الجزائريين ومؤسسيها.

² - محمد البشير إبراهيمي، البصائر الثانية، العدد 229 سنة 1953 الجزائر.

وجودهم، وهذا التواصل بعيد الأغوار، فهو حب كبير تتماثل فيه الأشياء والمعنويات.

ولذا يقف الكاتب موقفا تأمليا، كله شوق وعفوية تامة قائلا: ((خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موقنة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟

وكتبت الأقدار علي أن لا أملك من أرضك شبرا، فهل لي أن أحوز في ثراك قبر؟!))¹

هكذا تكون المقالات الوطنية نفثات إيمانية، وتساؤلات عميقة، كلها أمل ورجاء، ولذلك كانت إنسانية في صدقها، وانسياعها، لأن الكاتب كشف لنا عن فيض خواطره وأشواقه وهو في محراب ألامه وغربته، بل إن هذه الأشواق مظهر من مظاهر الحرية والاتجاه نحو العالم الفسيح الزاخر بالذكريات، العالم الذي يصبو إليه الكاتب، ويهفو إلى معالمه، لأن ((الوطنية عاطفة غريزية، تغذيها الفطرة، وتحليها الحكمة، وتشد أواصرها خصائص الإنسانية، والنشأة السليمة، والتربية الكاملة))²

ولذا تكون الأشواق إلى الوطن فيوضات مقدسة، واحترافا، وتشوقا، فيبوح المبدع بنبض القلب، ومخزون الذاكرة، ويكشف عن عمق الجرح، فيقول: ((أما الشوق إليك فحدث عنه ولا حرج، وأما فراقك فشدّة يعقبها الفرج، وأما الحديث عليك فأزهار تضوع منها الأرج وأما مارفعت من ذكرك فسل من دب ودرج، وأما الانصراف عنك فارجاف بالغي لم يجاوز صاحبه اللوى والمنعرج، وأما الأبوة فمازلت أسمع الواجب يهتف لي أن يا (بشير) إذا قضيت المناسك فعجل بالأوبة إلى (ناسك))³.

وعلى العموم، تلك نظرة خاطفة عن المقالة الوجدانية في النثر الجزائري الحديث؛ الذي تتمايز فيه هذه المقالة من أديب إلى آخر فالإبراهيمي مثلا يسوقها

1 - محمد البشير الإبراهيمي، البصائر الثانية، العدد 229 سنة 1953 الجزائر.

2 - محمد الطاهر فضلاء، من جوامع الكلم لحكيم العلماء وعالم الحكماء، الثقافة، س 15 العدد 87 يونيو

1985 ص 397

3 - محمد البشير الإبراهيمي، البصائر الثانية، العدد 229 سنة 1953 الجزائر.

بأسلوب قوي جزل متين يعتمد السجع والمحسنات البديعية، وبذلك أعطى للمقالة خصائصها ومنحها مذاقها الخاص ولون تفكيره وخصوصية تفرد مما يدل على ثقافة واسعة، وفكر عميق، وحس مرهف لأن الإبراهيمي مفكر عميق النظرة، مبدع يشحن اللغة بطاقات حية تستمد ظلالها وخطوط ألوانها من تناسقها وتوازنها بتوزيع موسيقي وفق الأضواء النفسية على رقعة مقاله الوجداني، فتستريح له العين، وتهش له النفس، و تطرب به الأذن، وتهدا له الأعصاب لأن شخصيته موسوعية مشدودة إلى الماضي مستغرقة في التراثية بفعالية الحاضر وموسوعية الأمل وتروي الحكيم.

أما رمضان حمود، ومبارك جلواح، وعلي بن حالة، وغيرهم، فقد اعتمدوا لغة الوجدانيين برؤاها وأحلامها وأطيافها؛ بمفرداتها، وتراكيبها المستوحاة من الطبيعة الواعية الحية المتفاعلة؛ الطبيعة التي بث فيها المبدع روحا جديدة بعيدة عن الروح الوصفي السطحي، فجاءت مشخصة للمشاعر الإنسانية، بحس مرهف، فإذا بنا أمام لغة ((الدهر الجبار، الحياة المرة، صوت السماء، الدماء الطاهرة، القلب المكلوم، دنيا الحرمان، والألم والأحزان، عيون ترنو، طيور الحياة، أفياء السماء، الألحان المرناة، حنايا الضلوع، أناة الفزع، المغرد النائي، عظام ناحلة، وعروق فانية، إهاب بالي، مهدئة الخواطر، ومبردة العيون، غرة السحر الأبلج النضير، ورسول عرائس الروض والربا، الأسفع الدامس، نجية الصبا، احترقت أضلعي، واهتر مضجعي، الغلالة العلوي الزاهرة، عطر الفضاء، الأم الرؤوم)) هذه اللغة التي جاءت تارة حزينة، وطورا مفرحة مسعدة، لغة هادئة، سرديّة، هامسة، في معظمها تعتمد حروف: (ت، ج، س، ش، ف، ك، هـ) حيث نحس إزاءها بأطياف الحياة وخيالات الكون، والانعقاد من اللغة المباشرة القاموسية فإذا بها لغة نجوى، وشوق، وأنين، وألم، لغة المعاناة والتلقائية الموحية بالمعاني والظلال؛ بإيماءاتها إلى الحياة النفسية وانسيابيتها، لأن اللغة الهامسة تصور لنا أكثر مما تقرر، يقول مبارك جلواح: ((أقبل الصباح في حلتة اللجينة المؤتلفة الواضحة، وعلى مفرقه تاج الغزالة المشرقة للماحة؛ تلوح من ميدان الفجر الأبلج الوضاء، فقام الكون وقعد وركع الوجود وسجد!!... وابتدرت الرياحين بتحيته مبتسمة الثغور، فواحة العبير، ما بين ورد أحمر عطير، وبنفسج أزرق نضير، وتسابقت لتنهى... أعراف النعامي

¹ - راجع خواطر رمضان حمود، وكذلك خواطر مبارك جلواح

ونسمت الصبا الشيمة للعبوب، العابثة بأفنان السرحات،... بساحات الرياض الغناء العازفة بأناملها اللطيفة على أوتار أوراقها المادية الباكية بدمع مع الغمام))¹.

إن هذه اللغة لغة جديدة - بالنسبة لتلك الفترة - تصور نمطا من الأطياف، والرؤى والأحلام والتأملات والتجارب الإنسانية مما يدل على استيعاب كتابنا للغة الرومانسيين ليعبروا بها عن آلامهم، وآمالهم الصائرين حين أحسوا بمأساة شعبهم في أتون الظلم، وجحيم الاستعمار، وغربتهم فوق أرضهم.

إنها لغة تصويرية، تختزن طاقات دلالية نفسية، جمالية. ولعل هذه النبيرة الهامسة، الدافئة، وهذا التصوير الرائق المستمد من الطبيعة بكل جمالياتها تعود إلى أن مبارك جلواح كان ذا ثقافة عالية لأنه كان يحسن العربية والفرنسية ويقرأ كثيرا من الأدب العالمية، إضافة إلى ((أن كثيرا من الموضوعات التي طرقتها ساعدته على أن يهتم بالإيحاء والرمز، والهمس بدل المباشرة، والنبيرة العالية، وساعدته لغته التي كان يختارها - أحيانا - لتلائم هذه المشاعر الهادئة أو المتفجرة))²؛ لأن المقال الوجداني وليد الخيال والعاطفة، والتأمل، بصدق عاطفي ولذا وجدنا لغة جديدة، هي لغة ((الرياحين حين تحي، وتبشم، والبنفسج الأزرق النضير الذي يعطر الورود ونسमत الصبا للعبوب العازفة بأناملها على أوتار الأوراق الندية)) إذ تحول الحفيف إلى عزف، وتحولت قطرات الندى إلى دموع للغمام، وهكذا يقوم المقال الوجداني على التشخيص، وعلى الإسقاطات الذاتية لأن مبارك جلواح كان يصدر عن إحساسه المفرط بذاته، وتجاربه الذاتية، ويسقط ذلك على الكون والحياة؛ نتيجة لإحساسه بالغربة، هذه الغربة التي عبر عنها، وعن قساوتها، وعن ضغط المستعمر، ولذلك يكثر من ألفاظ، ومعاني الأسى، والألم، ويوغل كثيرا في إيجاد صور جميلة ملائمة لحالته النفسية المتوترة حيناً، الهادئة أخرى حسب المثير، ووفق الاستجابة، يقول في إحدى سرحاته في الطبيعة وهو يتأمل الشروق على حافة وادي الرميل: ((وقفت منجني الهامة، مفتت الكبد، منفطر الجنان، شارد البال، مترنحا بين عواصف الألام، وروامس الآمال؛ على هيئة الدرفس الخفاق في ساعة الوغى))³.

1 - مبارك جلواح، بين الشلف والرميل، في أبي اليقظان، الأمة ع 117، 13/04/1937

2 - د/ عبد الله الركبي، الشاعر جلواح، ص 293

3 - مبارك جلواح، في أبي اليقظان، الأمة ع 117، 13/1937

فهذه اللغة بجمالها القصيرة، المتسلسلة، المرسلة، المتقاطرة ألما، وحسرة، لغة الرومانسيين في لحظات التمزق، فهي لغة وامضة، تنثني في تيار نفسي متدفق، بالآلام، لغة البوح على أوتار الأسى، لأن الإبداع ((رؤية كيانية يعتنقها الشاعر لتفجير مكبوتة الوجداني والرؤيوي والحضاري ونعته معانقة الأفاق البعيدة ومجاهيلها الغيبية))¹؛ ولذلك تكون صور ((توحيد أنغام الحياة، وأحان البلبل الغريد.. التي تخفف أثقال هذه الحياة التسعة الحرجة))².

هكذا تكشف لنا هذه اللغة التأملات، والتطلعات، والرؤى الوجدانية العابسة، لأن ((الحنن الشعري جوهري ولصيق بالمعنى الإنساني العميق، ولذلك فهو دائم الحضور في الذات وبها ومن أجلها))³؛ لأن الكاتب يعيش واقعا متأججا لها مما يجعل اللغة ممتدة، متدفقة، حاملة لحرارة نفسية وارتطامه بالواقع، فتكون لغة التداوي الحر بكل احتراق وفيوضات رومانسية، مما يحولها أحيانا إلى شعر موزون، ومقفى، يقول مبارك جلواح:

((وبلناته خذا يدي من وهادي !!!

هذه أدمعي، وذاك فؤادي !!!

خلينا ذكر سودد قد تقضى تحت كل عصر تلاد!!!

واشهدا مصرع الفضيلة كلمي تحت أقدام قارعات العوادي))⁴

ففي هذا المشهد يشخص لنا الكاتب مشاعره، وأحلامه بلغة سهلة واضحة، هي لغة الأسى والثورة، في تواصل تعسري موزون، وهذه اللغة ترتبط ارتباطا وثيقا بذات الكاتب وتكشف لنا تأوّهه، وأسباب، وأسباب محنته، حيث نحس من خلالها بأطيايف الانعتاق من الواقع، كما تتساقط العبارة مع دقات الشعور، وسبحات الخيال.

وهذه اللغة لغة الوجدانيين بكل رواها وأحلامها بمفرداتها وتراكيبها المستوحاة من الذات؛ بلغة حية متحركة، تسري فيها روح الكاتب، وتدب فيها

¹ - د/ عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل، ص 38.

² - مبارك جلواح، في أبي اليقظان، الأمة ع 117، 13/1937

³ - د/ عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل ص 77

⁴ - مبارك جلواح، مصرع الفضيلة، في أبي اليقظان، وادي ميزاب، ع 1927/12/23

الحياة بكل آلامها، وما تحمل من صراع داخلي، وصور إحساس الكاتب، رغم خطابيتها أحيانا.

وعلى العموم تلك هي أهم خصائص هذه الفئة الرومانسية إذ ما قيل عن جلواح يقال عن البقية، إذ نجد لغتهم لغة تصويرية، موحية تتنوع بتنوع مأساتهم، وتتلون بمشاعرهم؛ إسقاطا وامتزاجا بالواقع، وحلما به، حاملة الكثير من رؤاهم، ناقلة لنا الواقع المعيش بكل حيثياته، وما يعتري الكاتب من خوف وقلق، وما يسيطر عليه من حزن، وضياح؛ لأن اللغة مظهر من مظاهر الشخصية، ولون من ألوان معاناة صاحبها، بل مفتاحه الذي يوصل به من يشاء.